

رأفةً بسوريا

بقلم سمير قصير (جريدة النهار ٢٢/٩/٢٠٠٠)

اولاً، ان جرائم اسرائيل ضد لبنان والعرب لا تنسى.

ثانياً، ان تفعيل الغرائز الطائفية لا يخدم المصالح الوطنية العليا.

ثالثاً، لنعد الى السياسة.

كانت كل المؤشرات توحى قبل اسابيع ان سوريا دخلت عهداً جديداً محكوماً بالتغيير، في الداخل كما في الخارج. رئيس شاب، وان بثياب حزبية وعسكرية قديمة، استحقاقات اقتصادية لا تحمل التأجيل، مجتمع يتعطش الى الخروج من الثلجة، معادلة اقليمية معدلة جذرياً بعدما اعطى تلازم المسارين الطيب الذكر ثماراً فاقت حسابات التكتيك. ولان سوريا القوية التي جسدها حافظ الاسد هي اساساً القوية في لبنان، كان من الطبيعي ان يفهم من مؤشرات التغيير انه سينعكس على لبنان اياه، بل انه قد يبدأ منه.

وهذا بالفعل ما فهمه جزء من الناخبين اللبنانيين فجاء اقتراحهم كأنه محرر من طيف طالما اقله، مثلما فهمه ايضا بعض اصداق سوريا، وعلى رأسهم وليد جنبلاط.

ولكن يبدو ان ثمة سوء تفاهم. فاذا كانت سوريا دخلت عهداً جديداً، وكيف لا تدخله بعد انتهاء ثلاثين عاماً من حكم رئيس واحد اوحده، فان السياسة السورية ما زالت تعاند الانتقال من عهد الى عهد. في سوريا اولاً، حيث يتأخر التصدي للمهمات التحديثية التي اتخذها الحكم شعاراً، وان يكن المناخ صار اخف ثقلاً بفعل المرحلة الانتقالية. وفي لبنان ثانياً، حيث التراخي المسجل في القبضة السورية لم يفض الى التخلي عن ادوات السيطرة القديمة، وهذا ما يؤكد بالمناسبة ان التراخي المذكور لم يكن منةً من احد.

ليس ادل على هذه المعاندة من التعبئة التي تم اللجوء اليها في وجه نداء مجلس المطارنة الموارنة من اجل اعادة انتشار الجيش السوري في لبنان كمقدمة لانسحابه نهائياً منه. قطعاً، لا احد يتوقع ان يتم تبني مثل هذا الموقف بالاجماع، والنص يستحق اصلاً المحاججة في اكثر من بند، ولا سيما ما يتعلق منه بالعمالة السورية، فالدقة في التشخيص الاقتصادي كما السياسي، فضلاً عن ضرورة مقاومة الغرائز العنصرية عند اللبنانيين، كانت نفترض مقاربة اكثر تعقيداً لهذه المسألة. لكن نداء بكركي كان يستحق بالتأكيد رد فعل اقل استعجالاً، سواء من القيادات الروحية الاسلامية او من اركان "الحزب السوري" في لبنان، بمختلف انتماءاتهم الطائفية، ولا سيما ان مطلب خروج الجيش السوري استند بما لا يحمل اللبس الى النص الميثاقي المؤسس للجمهورية الثانية والمجدد للعيش المشترك.

يبقى ان هذا الاستعجال البالغ ينم عن عكس ما يريد الايحاء به. فبعكس ما يتصور الذين جيشوا انفسهم للدفاع عن الوصاية السورية (والذين دعوهم الى ذلك)، ان المسارعة الى حشد الطاقات السجالية ضد

بكركي لا تفيد بوجود غالبية وطنية مؤيدة لسوريا، وانما تعطي عن الطبقة السياسية الحاكمة في لبنان بدعم من سوريين صورة الجسد المسعور من قرب اكتشاف عريه.

ليست سوريا هي من يخشى العري، وهي التي تتطلع الى خلع ثياب بالية مستعارة انقلتها. ربما بعض رجالها يفعلون، ومعظم مواليتهم. ولكن ان تقف حفنة من الرجال المنتفعين، بالسياسة او بالاقتصاد، لتؤخر تغييراً لا مفر منه، فهذا تحديداً ما يجب ان يخشاه السوريون، لأن منع التغيير في لبنان اليوم لا يعني سوى منعه في سوريا غداً. وهذا ما لا يقبله احد.

رأفةً بسوريا قبل لبنان.
